النَّجاح
وكتاب « سرّ النَّجاح »[١]

ما خلق اللهُ ذا عقلٍ من بني آدم إلا أودع في تركيبه شيئين ، كالمقدِّمة ، والنَّتيجة ، وأعطاه بهما القدرة على الوسيلة ، والغاية ؛ ليحيا مَنْ حيَّ عن بيِّنةٍ ، ويهلك مَنْ هلك عن بيِّنةٍ ، ففي تركيب الإنسان قوَّة الرَّغبة في النَّجاح ، وأن يتأتَّى إلى سرِّه ، أو يبلغ منه ، أو يقاربه ، وفي هذا التَّركيب عينه ما يهتك به هذا الحجاب ، ويفضي منه إلى هذا السِّرِّ ، ويجمع بك عليه ، وما أنكر أنَّ النَّجاح قدرٌ من الأقدار ، ولكنَّه قدرٌ ذو رائحةٍ قويَّةٍ خاصَّةٍ به ، يستروحها من تحت السَّماء وهو لا يزال في السَّماء ، وبينه وبين الأرض أمدٌ ، ودهرٌ ، وأسبابٌ ، وأقدارٌ كثيرةٌ ، ولولا أنَّ هذه الخاصَّة فيه وفي الإنسان منه ؛ لما توفَّرت رغبةٌ في عملٍ ، ولا صحَّ نشاطٌ في الرَّغبة ، ولا توجَّه عزمٌ إلى النَّشاط ، ولا توثَّقت عقدةٌ على العزم .

غير أنَّ في الإنسان كذلك ما يفسد هذه الخاصِّيَّة ، أو يُضعفها ، أو يُعطِّلها تعطيلاً ، فإذا هي تضلُّ ولا تهدي ، وكانت تهدي ولا تضلُّ ، وإذا هي زائغةٌ عن الحقِّ ملتويةٌ عن القصد ، وكانت هي السَّبيل إلى الحقِّ ، وهي الدَّليل على القصد ، وما ينال منها شيءٌ إلا واحداً من ثلاث : العجز ، وضعف الهمَّة ، واضطراب الرَّأي .

فأمَّا العجز ؛ فمنزلةٌ تجعل الإنسان كالنَّبات ، يرتفع عن الأرض بعوده ، ولكنَّه غائرٌ فيها بأصول حياته .

وأمَّا ضعف الهمَّة ؛ فمنزلة الحيوان ؛ الَّذي لا همَّ له إلا أن يوجد كيفما وجد ، وحيثما جاء موضعه من الوجود ؛ إذ هو يولد ، ويكدح ، ويكدُّ ليكون لحماً ، وعظماً ، وصوفاً ، ووبراً ، وشعراً ، وأثاثاً ، ومتاعاً ، وكأنَّه نوعٌ آخر من النَّبات إلا أنَّه نوعٌ آخر من المنفعة .

وأمَّا اضطراب الرَّأي ؛ فمنزلةٌ بين المنزلتين ، ترجع إلى هذه مرَّةً ، وإلى هذه مرَّةً ، وتقع من كلتيهما موقعها .

والعجز ، وضعف الهمَّة ، واضطراب الرَّأي في لغة العقل معانٍ ثلاثةٌ لكلمةٍ

---

(١) المقتطف ، مايو ، سنة (١٩٢٣) . (س) .

واحدةٍ ، هي الخيبة ، وما أسرار النَّجاح إلا الثَّلاثة الَّتي تقابلها ، وهي : القوَّة ، والعزيمة ، والثَّبات .

ولكنَّ في هذا الإنسان طفولةً وشباباً ، وهما حالتان لا بدَّ منهما ، وهما من الضَّعف ، والنَّزق بطبيعتهما ، وفيهما يتثاقل الإنسان إلى أغراضه ، ويرتدُّ عن صعابها ، وينخذل دون غاياتها ؛ وليس يأتي للطِّفل أن يدرك الرَّجلَ في معانيه ، ولا للشَّابِّ أن يبلغ الحكيم في كماله ؛ فكأنَّ هذين ليس لهما أمل في أسباب النَّجاح ، وكأنَّ كليهما لا يحسن أن يطوي فؤاده على شيءٍ ، ولا أن يجمع رأيه على أمرٍ ، غير أنَّ حكمة الله ، ورحمته : أنَّه أرصد من نواميسه القويَّة لضعف الطُّفولة ، ونزق الشَّباب ما هو سنادٌ[1] يمنع ، وموئلٌ يعصم ، وقوَّةٌ تصلح ؛ وهو ناموس القدوة ؛ الَّذي يتمثَّل في الأب ، والأمِّ ، والصَّاحب ، والعشير ، والمعلِّم ، والكتاب ؛ لأنَّ الله جَلَّت قدرته يَبثُّ في الخلق ما يوجِّههم دائماً إلى الاعتقاد ، ويحملهم عليه ، ويبصِّرهم به ، حتَّى كأنَّ الحياة كلَّها إنَّما هي ممارسةٌ لفضيلة الإيمان به من حيث يدري الإنسان ، أو لا يدري .

وكتاب « سرّ النَّجاح » الَّذي ترجمه أستاذنا العلامة الدُّكتور يعقوب صَرُّوف في سنة ١٨٨٠ م وظهرت طبعته الرَّابعة في هذه الأيَّام ، هو والله في باب القدوة ناموسٌ على حدةٍ ، وما رأيت كتاباً تلاءم نسجه ، واستوت أجزاؤه ، ووضع آخره على أوَّله ، وانصبَّ كلُّه إلى الغرض الَّذي كُتب فيه ، وجاء مقطعاً واحداً في معناه ، وفائدته كهذا الكتاب ؛ الَّذي يعلِّم الضَّعيف كيف يقوى ، والعاجز كيف يعتمد ، والمضطرب كيف يثق ، والمحزون كيف يأمل ، واليائس كيف يثق ، والمنهزم في الحياة كيف يُقبل ، والسَّاقط كيف ينتهض ، ويعلِّمك مع ذلك كيف تريح الكدَّ بالكدِّ ، وكيف تسقط التَّعب بالتَّعب ، وكيف تمضي عزيمتك ، وتعتقدها ، وتضرب كرة الأرض بقدميك وإن لم تكن ملكاً ، ولا قائداً ، ولا فاتحاً ، وإن كنت من صميم السُّوقة ، وإن كنت من فقرك وراء عتبةٍ واحدةٍ . لا أقول : إنَّ هذا الكتاب علمٌ ، فإنَّ هذا القول يسقط به دون منزلته ، ولا يعدو في وصفه أن يجعله مجموعاً من الورق الصَّقيل على طبعٍ جيِّدٍ ، مع أنَّه مجموعٌ من الأرواح ، والعزائم ، وأعصاب القلوب ؛ ولكنِّي أقول في وصفه العلميِّ : إنَّ المدارس تخرِّج من الكتب تلاميذ . . . وهذا الكتاب يخرج من التَّلاميذ رجالاً أقوياء ، أشدَّاء ، معصوبين

(١) « سناد » : السِّناد : العماد للشيء ، أو ما يستند إليه .

عصيب جذوع الشَّجر العاتي من قوَّة النَّفس ، وصلابتها ، وصحَّة العزيمة ، ومضائها ، وتصميم الرَّأي ، ونفاذه ؛ وممَّا يُعطى من قوَّة الصَّبر ، والثَّبات ، ومطاولة التَّعب إلى أبعد حدود الطَّاقة الإنسانيَّة .

وما تقرؤه حقَّ قراءته ، وتستوفيه على وجهه من التَّدبُّر ، والإمعان إلا خرجت منه ؛ وقد وضع في نفسك شيئاً أعظم من نفسك كائناً مَنْ كنت ، وكيف كنت ، فإنْ تكن طفلاً ؛ خرجت رجلاً ، وإن كنت رجلاً ؛ خرجت حكيماً ، وإن كنت حكيماً ؛ اسْتَحْدِثْ في نفسك ما يجعلك بالحكمة فوق الدُّنيا .

قال الأستاذ المترجم في مقدِّمته : « أشهد لأبناء وطني أنَّني لم أنتفع بكتابٍ قدر ما انتفعت بهذا الكتاب » . وهذه هي الكلمة الَّتي لا يقول غيرها من يقرأ : « سرّ النَّجاح » ولا يمكن أن يقول غيرها ؛ إذ هو مبنيٌّ في وضعٍ من فائدة النَّفس وما يرهف حدَّها ، ويبتعث ملكاتها ، ويستنهض قواها ، ويستنفذ وسائلها على ما يشبه القواعد الَّتي لا تؤدِّي إلا إلى نتيجةٍ واحدةٍ من أين اعتبرتها ، كاثنان ، واثنان : أربعةٌ ، وثلاثةٌ ، وواحدٌ : أربعةٌ ، وأربعةُ وحداتٍ : أربعةٌ ، وهلمَّ جرّاً .

تلك شهادة المترجم ، أمَّا أنا ؛ فأشهد لقد عرفت منذ زمنٍ طالباً في الأزهر ، فلمَّا تعرَّف إليَّ جعل يشكو ، ويتبرَّم ، وينفض لي نفسه ، ويقول : الأزهر ، وعلومه ، وفنونه ، ومسائله ، ومشاكله . والمتون وما فيها ، والشُّروح وما إليها ، والحواشي وما يردُّ ، ويعترض ، ويجاب به ، ويقال فيه ، وكلُّ كلمةٍ بساعةٍ من العمر ، وكلُّ سطرٍ بيومٍ ، وكلُّ جزءٍ بسنةٍ ، وتركت ورائي كذا ، وكذا فدَّاناً ، وأقبلت على كذا ، وكذا علماً ، فلا حصدت من هذه ، ولا من تلك ! قلت : وما يمسكك والباب مفتوحٌ ، ولا يسألك الأزهر إلى أين ، ولا تسألك الدُّنيا إذا خرجت إليها من أين ؟ قال : والله ! ما ربطني إلى هذه الأعمدة خمس عشرة سنةً كاملةً على يأسٍ ، ومضضٍ إلا كتاب « سرُّ النَّجاح » وما أمضيت نيَّتي مرَّةً على وجهٍ من وجوه العيش إلا رأيت هذا الكتاب قد ضرب وجه هذه النِّيَّة ، فردَّها إلى هذا المكان ، وألقاها في هذا المستقرِّ ؛ وما هممت بترك الأزهر إلا انتصب في وجهي كلُّ الأبطال الَّذين قرأت أخبارهم فيه ، وأمسكوني ؛ لا من يدي ، لا من رِجلي ، ولكن من اعتقادي ، وإيماني ، وأملي !

قلت : فوالله لا يدعك حتَّى تنجح ؛ وما ربط الله على قلبك بهذا الكتاب ، وثبَّت فؤادك باليقين الَّذي فيه إلا وقد كتب لك الخير كلَّه !

* * *